مظاهر وسمات الحداثة الفلسفية

يعقوب ولد القاسم
جامعة انواكشوط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الفلسفة

مقدمة

منذ متى قررت الفلسفة كمهمة لها التفكير في الحداثة؟

لقد كتب أريك فيل Eric Weil في نص نشر أياما قليلة قبل وفاته: "من الصعب علينا اثبات تاريخ محدد لنشأة الحداثة، مثلما يصعب علينا اثبات اسم واحد واعتباره أب الحداثة إذا صح هذا التعبير[1]. لا إمكانية إذن للحسم النهائي في مسألة اثبات النشأة الزمنية للحداثة، ولا لاسم الفيلسوف المدشن وهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة. وهي مسألة قد بقيت الآن مثار حيرة وسؤال. ورغم ذلك، فيمكننا أن نعتبر أن الفلسفة بدأت تنعت بكونها حديثة، حينما تكون لديها الوعي بأن تكون كذلك، وأن تأول باعتبارها: "زمنها ملخصا في الفكر[2]. أي عندما اكتسبت الفلسفة وعيا تاريخيا بذاتها، ووعيا فلسفيا بتاريخها. معنى ذلك عموما أنه طالما ظل من الصعب الاتفاق على فترة زمنية محددة للحديث عن ميلاد الحداثة الفلسفية، أو الاتفاق على اسم واحد واعتباره الأب المدشن للحداثة، فباستطاعتنا، عوضا عن ذلك، أن نقول إن الفلسفة بدأت تتبنى الحداثة وتتصف بأوصافها حينما أصبح الفيلسوف مقتنعا وواعيا بأنه إنسان حديث، وأصبحت نصوصه تقرأ وتأول على أنها حديثة.

وهذا ما تضمنته العبارة "الفلسفة هي زمنها ملخصا في الفكر". فالفلسفة الهيجلية اكتسبت وعيا تاريخيا بذاتها، وتكون لدى هيجل وعي فلسفي بتاريخ الفلسفة. وهذه هي الشروط التي بتوفرها، تستطيع فلسفة ما أن تدعي لنفسها الوعي بالحداثة. غير أن الحداثة كما نجد عند كاترين كوليو- تلين "لم تظهر فجأة ذات يوم (...) فإن قرونا عديدة كانت ضرورية لتنتظم مختلف أجزاء هذا التركيب المعقد الذي نصفه بهذا المفهوم[3].

فبما ذا تميزت هذه القرون التي مهدت للحداثة؟

---

[1] Éric Weil – «faudra-t-il de nouveau parler de morale » ?In Savoir, faire, espérer. Les limites de la raison – pub. De la faculté des lettres – université de Saint-Louis – Bruxelles, 1976-I- p. 268.

[2] G.M.F. Hegel. Les principes de la philosophie du droit, tr. André Kaan – Gallimard 1940 –p. 57

[3] Catherine Colliot-Thélène. Le désenchantement de l'état de Hegel à Max Weber, les éditions de Minuit, Paris 1992 – p.32.

ما الذي طبع التفكير الفلسفي خلال هذه الحقبة؟

وقبل ذلك كيف كانت تسير الأمور السياسية التي لها صدى مباشر في نصوص هيجل؟

هيجل والنهضة و الأنوار

بإمكاننا أن نعتبر أن الحداثة الغربية قد بدأت بعصر النهضة. أي ان النهضة كانت عتبة الحداثة. ويمكن اعتبار النهضة في جوهرها تحديثا عقليا يمهد للحداثة على كل الأصعدة. والنهضة بصفة عامة هي الحركة التي استبدلت في أوروبا، الأفكار والأنماط الذهنية للعصر الوسيط بأفكار وأنماط جديدة. وقد كانت فلسفة الأنوار النموذج الفكري – الثقافي الذي توجه على أساسه هذا العصر وان جل المفكرين أعتبروا ان الأنوار هي الممهد الحقيقي للثورة الفرنسية ولكل الحركات التي أعلنت مبادئ مستوحاة من "روح العصر". وقد أعجب هيجل بفلسفة الأنوار وأكد على جانب الجدة فيها. وقد أكد فيتالي كوزنتسوف. في مؤلف مشترك، صدر تحت إشراف جاك ادهونت بعنوان هيجل وعصر الأنوار على تجسيد هيجل لفلسفة الأنوار في كثير من توجهاتها وخاصة السياسية، يقول: "(...) وفيما يتعلق بالروابط التي تربط الفكر الهيجلي وفكر القرن XVIII، فلا يمكن أن نهمل، ما اعتبر، وفي رأي كل معاصريه تقريبا، التجسيد النموذجي والأكثر وضوحا، للروح الفلسفية للأنوار[1] إلا أن هيجل مع ذلك كان كثير المعاداة لفلسفة الأنوار وقد انتقدها بشدة، باعتبارها فلسفة الفهم. وقد تحدث هيجل عن فلسفة الأنوار في كتابه العقيدة والمعرفة[2] يقول "... إن الانتصار الرائع الذي حققه العقل المضيء لفلسفة الأنوار على ما كان يعتبر بحكم تصوره للديني كعقيدة -مقابلا له- ليس شيئا آخر (...) إنه أيضا لم يبق عقلا[3] أي أن العقل الأنواري رغم الانتصارات التي حققها، ورغم تبنيه لبعض الأفكار الرائدة والمفاهيم الأساسية التي تنتمي لروح العصر، فإنه (أي هذا العقل) لم يبلغ سوى مرحلة الفهم. فهو بحكم تصوره للمسألة الدينية، وللعقيدة الوضعية، التي جعل واجبه الرئيسي مقاومتها فإن هذا العقل لم يبق عقلا. بل إن هيجل حسب هابر ماس "قد أقتنع بأن عصر الأنوار الذي بلغ أوجه مع كانط وفيخت قد جعل من العقل صنما. فبدل العقل فإن هذا العصر، وبصورة خاطئة قد أحل الفهم أو التفكير، وبالتالي نصب كمطلق شيئا متناهيا[4]. إي ان عصر الأنوار قد أقر مبدأ تأليه العقل أو

---

[1] Hegel et le siècle des lumières, ouvrage publié sous la direction de Jacques D'Hont P.U.F – p.1974.Y ont participé: Vitaly Kouznetsev, Guy Planty Bonjour, et autres

[2] Hegel et le siècle des lumières, ouvrage publié sous la direction de Jacques D'Hont P.U.F – p.1974.

[3] Vitaly, Kouznetsov, Op. Cit. P.25

[4] Hegel, Foi et savoir, Kant-Jacobi –Fichte – intr. Alexis Philonenko. tr. A. Philonenko et Claude Lecouteux. P. 1988

مبدأ صنميه العقل حسب هيجل. ثم إن فلسفات كل من كانط وفيخت لم تقم سوى بإحلال الفهم محل العقل بمعنى أنها فضلت، حسب هيجل، إقرار الفهم وهو المتناجي محل العقل وهو المطلق.

وهذه هي أهم مآخذه على فلسفة الأنوار وعلى فكر القرن الثامن عشر عموما.

هيجل و الإصلاح الديني

ولا ننسى أن القرن XVIII هو الذي أعقب تلك الأحداث التاريخية الكبرى التي اعتبرت مفاتيح العصر وهي "اكتشاف أمريكا، والنهضة العلمية، والإصلاح الديني". وما كان لها من تأثير سياسي على الحياة الثقافية والدينية وخاصة منها "الإصلاح الديني" الذي قاده لوثر. فهذا الأخير قد استهدف من وراء عمله. إدخال إصلاحات على نظام الكنيسة، للحد من سيطرة ونفوذ رجالها على الحياة السياسية والحريات العامة. ويعتبر هيجل فيلسوفا يساند الإصلاح يقول جاك ادهوندت: "إن هيجل يحلو له استنباط التعاليم الدينية والفلسفية والسياسية من نظرية لوثر وعمله، ليقابلهما مع نتائج المسيحية التقليدية[1] ولقد تحمس هيجل في تأييده للإصلاح "الديني ". ووصفه بالنصر التاريخي والنظري. ولقد تحدث هيجل عن الإصلاح في مقدمته حول الفلسفة الحديثة في محاضرات في تاريخ الفلسفة للعام 1825-1826 قائلا: "مع الإصلاح La réforme فإننا ندخل بحديثنا وبصورة واضحة في المرحلة الثالثة (...) لقد وضعت الديانة المسيحية محتواها المطلق في العقول[2]. لقد قام لوثر في نظر هيجل بإدخال إصلاح كلي على الكنيسة الكاثوليكية. وقد مكن هذا الإصلاح من تحقيق شيء آخر يتمثل في المصالحة.

مصالحة عالمنا مع العالم العلوي. وإن "مبدأ هذه المصالحة الداخلية للروح هو أنها كانت في ذاتها الفكر الأساسي للمسيحية[3]. وإن هذا الانتصار التاريخي الذي تحقق مع إصلاح لوثر هو الذي مكن "روح العالم من تجاوز شكله الخارجي(...) وبأن يظهر على وجهه الجديد (...) وقد تمكن الإنسان من استرجاع ثقته في ذاته وفي التفكير من حيث هو تفكير[4].

هيجل و اكتشاف أمريكا

وكانت آراء هيجل واكتشاف أمريكا تساهم هي الأخرى في إعداد الروح لهذا الانتقال، لتتضاف في هذا العصر إلى "اكتشاف أمريكا. يقول هيجل: "لقد اكتشف الإنسان أمريكا وثرواتها

---

[1] Hegel, Op. cit. – p.91

[2] Jurgeen Habermas, le discours philosophique de la modernité, tr. Christian Bouchindhomme, et Rainer Rochlitz, Paris Gallimard 1985 p.7

[3] Jacques D'Hondt, Hegel. Le philosophe du débat et du combat. Série textes et débats. Coll. Livre en poche, librairie générale française Paris 198, p. 111

[4] G.W. F Hegel, leçons sur l'histoire de la philosophie trad., annota, et Constr. Du cours 1825-1826 de Pierre Garniron – Paris Vrin 1985 – p .1246

وشعوبها، اكتشف الطبيعة بنفسه (...) لقد أصبح العالم الحالي مرة أخرى حاضرا من حيث هو أهل لمصلحة الروح، لقد أصبح في استطاعته، من جديد، أن ينجز عملا ما[1].

إن اكتشاف الثروات التي تزخر بها أمريكا، واكتشاف شعوبها، بلغاتهم وعاداتهم والتبادلات التجارية، والطريق الجديد الذي اكتشف لعبور القوافل، كل ذلك قد فتح للإنسان آفاقا جديدة[2]. ثم أنه ساهم في إعادة تشكيل المعالم الجديدة للعالم الحديث. لقد بات بفضل هذا الحدث، في مقدور الروح أن ينجز شيئا ما، أن ينجز عملا جديدا في مسار تشكله الطويل. إن هذا العالم أصبح عالم الروح، من حيث أنه غدا يجسد مصالح الروح. أما الحدث الثالث الذي مهد لهذه الحقبة فهو النهضة. حيث عبر الإنسان حسب هيجل، عن إعجابه وسروره بإبداعاته في الفكر والفن والأدب. يقول هيجل: "لقد عبر الإنسان عن الاهتمام وعن الفرح إزاء قيامه باكتشافات جديدة في الفن وفي الفكر وفي الطبيعة[3]. ومن المعروف أن النهضة انطلقت أولا في إيطاليا في مجالات الفن والأدب والسياسة. وقد دشنها سياسيا حسب هيجل كتاب الأمير لماكيافيل. غير أن هذه الأحداث لم تعتبر تجديدا إلا خلال هذا القرن الذي مهدت له، أي القرن XVIII.

هيجل والثورة الفرنسية

ومن أجل التعبير عن تلك القرون الثلاثة التي سبقت هذا القرن، ظهرت مجموعة من التعابير وخاصة في فرنسا وانجلترا مثل "الأزمنة الجديدة" و"الأزمنة الحديثة". لقد تركت هذه الأحداث أثرها على جميع أشكال التعبير الثقافي. إن الدلالة التاريخية لهذه الأحداث كما رأينا سابقا، تتجاوز الإطار الزمني، لتكون بمثابة التعبير الحقيقي عن الانحلال والتمزق الذي كان يسود حياة الروح. وقد جاءت الثروة الفرنسية لتؤكد انهيار العالم القديم، بعد أن أصبحت القوى التي توحد حتى الآن الأطراف المتعارضة في الحياة وتجمع هذه المتناقضات عاجزة عن القيام بدورها. وقد أول هيجل هذا العجز باعتباره مصدر الحاجة إلى الفلسفة يقول: "عندما تختفي القدرة على التوحيد من حياة الناس، وعندما تفقد الأطراف المتعارضة علاقاتها الحية وتفاعلاتها، وعندما تأخذ استقلاليتها عنها تولد الحاجة إلى الفلسفة[4].

لقد تأكدت تلك الحقيقة حسب هيجل بعد الثورة الفرنسية التي تمثل هي الأخرى مصدر الحاجة إلى الفلسفة حسب هيجل، الذي كان قد أعجب بالثورة وبمبادئها المستوحاة من روح العصر فكيف نظر هيجل إلى الثورة الفرنسية؟

---

[1] Hegel, Leçons sur l'histoire de la philosophie – op. Cit. P.1246

[2] Charles Minguet. Hegel et les problèmes de la conquête et de la colonisation de l'Amérique. Séance mensuelle de la faculté de Rabat. École du livre 1960.

[3] Hegel, op.cit ; p. 1246

[4] Hegel, Leçons sur l'histoire – op. Cit. p.1247

لقد رأينا للتو، كيف أن هيجل اعتبر أن مبعث الحاجة إلى الفلسفة هو كونها، أصبحت ضرورية. وذلك لأن تلك القوى التي كانت توجد المتناقضات قد فقدت قدرتها على التوحيد، بعد الثورة. فهذه الأخيرة لم تكن فقط الحدث الذي أطاح بالنظام السياسي الفرنسي ما قبل 4 يوليو 1789 بل إنه فوق ذلك بالنسبة لهيجل الحدث الذي أعلن من خلاله الإنسان رفضه للعالم القديم بقيمه ومعتقداته وأشكال السلطة فيه إلخ.. يجب اعتبارها كما يقول هيجل "بمثابة حدث في تاريخ العالم كله[1]. بل أكثر من ذلك يجب اعتبارها من إنجازات الفكر "إن الثروة الفرنسية هي بنت الفلسفة[2].

وقد كان هذا الموقف سائدا لدى جل أصدقاء هيجل في ألمانيا، وخاصة هولدرلين وشيليخ. وليس من الغريب أن تبارك الاينتلجانسيا الألمانية أو الطبقة المثقفة الألمانية، الثورة لأن ألمانيا كانت تعيش ولمدة طويلة تحت سيطرة أنظمة تيوقراطية عتيقة أندفع هيجل في مرحلة الشباب في تأييده ومساندته للثورة ولجو الحرية الذي تعيشه فرنسا. كما أكدت كتابات المرحلة الأخيرة، نفس التأييد لها. وذلك رغم التوجه الجديد الذي أخذته والفتوحات التي نظمتها والتي وصلت حتى ألمانيا. وكذلك رغم دكتاتورية النظام السياسي الذي أرسته في فرنسا والدولة التي أقامتها*.

موقف هيجل من الثورة مرتبط بما أسماه الباحثون "وعي الزمن" واهتمام هيجل بأحداث عصره يقول فيتالي كوزنيتسوف: "دونما شك إن تسمية هيجل فيلسوف التاريخ الحي ترجع للاهتمام البالغ الذي أولاه لأحداث عصره[3] . وهو ما رأيناه واضحا في اهتمامه وإعجابه وانتقاده في بعض الأحيان لأحداث أخرى، مثل (النهضة واكتشاف أميركا والإصلاح الديني).

هيجل إذن قد واكب أحداث حقبته وأخذ موقفا منها جميعا. أما بخصوص الثورة يقول جاك ادهوندت: "يأخذ هيجل موقفه من هذا الانسجام العام الجديد الذي فتحته الثورة الفرنسية[4].

وهذا هو ما أشرنا إليه بوصفه "وعي الزمن". في هذه الحقبة بالذات "أتيحت لهيجل فرصة التعبير عن موقفه من الثورة الفرنسية، وذلك ضمن محاضرات في فلسفة التاريخ التي ألقاها في جامعة برلين خلال العام 1822-1831[5]. تماما مثلما كان خلال فترة سابقة من حياته

---

[1] G.W.F. Hegel. Différence des systèmes philosophiques de Fichte et de Shelling. Tr. Bernard Gilson. Paris – Vrin 1986. P.14

[2] Ibid. – p. 1246

* (وهي مسألة كنا قد فصلناها أكثر وربطناها بتصور هيجل للدولة في مقال سابق نشر في العدد 26 من مجلة الموكب الثقافية التي تصدرها اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والعلوم والثقافة)

[3] Hegel. Leçons sur la philosophie de l'histoire. J. Gibelin Paris 1922 – p.337

[4] Ibid. p.338

5 Vitaly Konsnetsov, op. cit. p.47

قد عبر عن نفس الموقف في إينا خلال إقامته بها سواء كان ذلك في الكتابات اللاهوتية، وكتابات الشباب عموما التي توجتها الفينومينولوجيا 1805. ففي محاضراته حول فلسفة التاريخ يقول هيجل منوها بجو الحرية الذي عاشته فرنسا والذي أشاعته الثورة: "وهكذا فإن مبدأ الحرية والإرادة قد أثبت ذاته مقابل الحق القائم آنذاك (...).

إن فكر ومفهوم الحق قد أظهر مزاياه فجأة ولم يعد بإمكان الصرح القديم للظلم إن يصمد أمامه[1]. وهكذا إ فمنذ أن "طلعت الشمس، وهي عبارة يستخدمها للتعبير عن الثورة، وأخذت الكواكب تدور حولها، "لم نشاهد الإنسان يسير مقلوبا على رأسه[2]. لقد اعترف هيجل بأن هذا العصر الذي دشنته الثورة، عصر فريد من نوعه. حيث أرادت هذه الأخيرة تحقيق مبادئ العقل. إلا أنه "مع ذلك ينتقد على الثورة كونها كانت قد تصورت هذه المبادئ (بطريقة مجردة)، أي بطريقة الفهم[3]. إنه عصر قد شهد هذه النقلة الجديدة للروح، هذا الميلاد الجديد للروح، هذا الانتقال. كل ذلك لأن الروح لم يفتأ يحاول "إنجاز حركة تقدم مستمرة تماما كما هي الحال بالنسبة للطفل: فبعد تغذية طويلة، هادئة، فإن نفحة الأكسجين الأولى تقطع مسار النمو البسيط، وبذلك تتحقق إذن قفزة نوعية[4].

كل ذلك إذن كان بفضل الثورة الفرنسية التي أكدت على إن العصر ملائم لهذا الإنجاز، والتي أملت على الفيلسوف (هيجل) أن يتبنى مهمة التفكير في الحياة" أي التفكير في الحاضر. وهذا الحاضر هيجليا هو المولد دوما للمشاكل التي على الفلسفة أن تبحثها. هذا الحاضر هو نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. إن "روح العصر (Zeitgeist) وهو أحد التعابير الجديدة التي ألهمت هيجل –تسم الحاضر كلحظة انتقال تستهلك نفسها في وعي التاريخ وفي انتظار مستقبل مختلف[5].

وهكذا تكون مهمة التفكير في الحياة هي التي دشنت خلال هذه الحقبة بالذات تصور التاريخ كتفاعلية متسقة خلاقة للمشاكل كما أشرنا. ثم إنه ابتداءا من هذه الفترة أيضا "أصبح الزمن معاشا في مواجهة القضايا التي تظهر كسلعة نادرة[6] كما يقول هابر ماس، وهكذا يكون هذا العالم الذي دشنته الثورة وتبنته كما يقول هيجل، يفتح بعدا جديدا ميز هذه الحقبة أو ميز الأزمنة

---

1 Jacques D'Hondt, Hegel. Le philosophe du débat et du combat – op. Cit. – p.49

[2] Alfred Stern, Hegel et les idées de 1789, in revue philosophique de la France et de l'étranger n°9 – n°12 sep. Déc. 1939 – Librairie Félix Alcan P.U.P.

[3] Hegel, philosophie de l'histoire, op. Cit. ; pp. 339-340

[4] Ibid. p.340

[5] A. Stern, op. Cit. p.361

[6] Hegel, la phénoménologie de l'esprit – tr. J. Pierre Lefèvre, la préface, Aubier, 1991 p.34

الحديثة، وهو بعد الانفتاح على المستقبل. إن دراسة موقف هيجل من الثورة الفرنسية يعطينا فكرة عن مدى تأثير الموسوعيين الفرنسيين على الفكر الفلسفي الألماني في القرنين XVIII وXIX وخصوصا على هيجل وبالأخص تأثير رو سو عليه، الذي ألهمه نظرية السيادة[1]، كما يقول أميل إبراهيبي. حيث أن هيجل يرجع أصول الثورة إلى فلسفة الأنوار وفكر جان جاك روسو. يقول أميل إبراهيبي: "وهكذا يعتبر هيجل أن الثورة نابعة من فلسفة الأنوار. أما عن تأثير روسو على الثورة فإن هيجل يعتبره أكثر أهمية مما يراه فيخت[2].

يقول هيجل: "إن الثورة قد وجدت أصلها في أن الفكر الذي يعتبر التحديدات الشمولية بمثابة الشيء الوحيد والذي يجد الواقع في تناقض مع التفكير، هذا الفكر هو الذي ثار ضد الوضعية القائمة[3].

وهكذا عرف الإنسان بواسطة التفكير مع هذا الحدث فقط أن الفكر أو الروح يجب أن يسود الحياة والواقع الروحي. وذلك مع "هذه الطلعة البهية للشمس التي تقربنا من المرحلة النهائية من التاريخ... من العالم الذي هو عالمنا.. من أيامنا هذه[4] وهكذا تعين على هذه الفترة أن "تطالب على أساس ملكية الإنسان لها –ولو نظريا على الأقل– بالكنوز التي عزيت بكثير من السخاء إلى السماء"[5]. لقد اعتبر هيجل أن مساندة الثورة واجب على الجميع. على جميع الكائنات. يقول في محاضرات في فلسفة التاريخ: "إنها إذن طلعة بهية للشمس وكل الكائنات المفكرة قد خلدت هذه الفترة مع الشعب الفرنسي. لقد ساد إحساس غريب، ولقد اهتز الكون أمام حماس الروح، وكأن المصالحة قد تحققت بين العالم الإلهي والعالم الأرض[6] حيث أن هذه الفترة هي التي ظهرت فيها الحاجة الماسة إلى إيجاد قدرة توحد متناقضات الحياة الاجتماعية وتتحقق فيها هذه المصالحة. وهذا ما أشرنا إليه سابقا باعتباره حسب هيجل مصدر الحاجة إلى الفلسفة. ذلك لأن الفلسفة لا تأتي إلا حين يكتمل مسار تكوين العالم ليتمكن الفيلوسف من تحقيق تلك المصالحة التي تحدثنا عنها. ويتأمل ليعي ما تم إنجازه فالفلسفة مع هيجل أصبحت وعيا بالزمن ،وعي بزمنها، هذا الزمن المعاصر لهيجل. والذي عاش تلك الأحداث التاريخية الكبرى ثم إننا أيضا أشرنا إلى أن دلالة تلك الأحداث تتجاوز الإطار الزمني لتكون بمثابة التعبير عن الانحلال والتمزق الذي يعانيه

---

[1] Jurgeen Habermas, le discours philosophique de la modernité, tr. Christian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz – Paris Gallimard 1985 p.7

2 Jurgeen Habermas, le discours philosophique de la modernité, tr. Christian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz – Paris Gallimard 1985 p.7

[3] Philosophie de l'histoire ; op.cit.p239

[4] Hegel. Ibid p 340

[4] La positivité de la religion Chrétienne, tr. Et pub. Sous la direction de Guy Planty – Bonjour, Paris. P.U.F 1983 – pp. 32

[5] Hegel. Leçons sur la philosophie de l'histoire. Op.cit.340

الروح. ذلك "أن الفلسفة في نظر هيجل كالدين، تولد من تمزق العالم حيث لم يعد الروح راضيا ولم يعد مرتاحا للحاضر المباشر[1].

هيجل والعصر الحديث (الحاضر – الماضي – روح العصر)

وكانت تلك الأحداث أيضا تنذر –وهو ما وقع– بانهيار العالم في شكله القديم، وتبشر بميلاد عالم جديد.

هذه هي حقبة هيجل، التي تجسدها –في رأيه هو– فلسفة الأنوار على الصعيد الفكري والثورة الفرنسية على صعيد الوقائع والعمل التاريخيين؛ والتي مهدت لها مجموعة الأحداث التي سبقت القرن الثامن عشر. وهنا تكون ساعة الفلسفة قد حانت بالنسبة لهيجل[2]. كما يقول أكويري ذلك أن مهمة الفلسفة حسب هيجل، بل وهدفها أيضا هو أن تفسر "ما هو موجود". لذلك، فإن لها مكانة خاصة في التاريخ الروحي للإنسان. حانت سعة الفلسفة بالنسبة لهيجل، حينما اندثر العالم في شكله القديم، وحينما سادت حياة الروح، أعراض التمزق، والانحلال، وفقدت الحياة انسجامها.

لقد بات من الضروري على الروح أن يتجاوز شكله القديم ويقيم القطيعة مع كينونته وتمثلاته. وهذا هو الانتقال أو الولادة.

هكذا إذن عبر هيجل في فلسفته عن زمنه، عن تلك الفترة التي "مهدت" للحداثة وهكذا كانت الفلسفة الهيجلية في ارتباطها بالأحداث الكبرى واتخاذها للمواقف من هذه الأحداث فلسفة الزمن الراهن. لأن هيجل قد طرح مهمة التفكير في الحياة مشروعا لتأملاته الفلسفية يقول شاتلي: "إن المقولة الحاسمة التي تمكننا من فهم المشروع في أعماقه، وتحدد في المقام الأول أن المعنى الرئيسي للبحث الفلسفي بالنسبة لهيجل، يتمثل في الحاضر. هذا الحاضر الذي يتوفر فقط كشيء تجب عقلنته[3]..

إن مهمة التفكير في الحياة تقتضي معرفة الصيرورة الفعلية للمجتمعات وتقتضي إعادة الاعتبار للحاضر بوصفه حصيلة لمسار طويل ومأساوي خلفته صيرورة المجتمعات. أي أنها بعبارة أخرى تقتضي فهم الماضي باعتباره مرحلة من مراحل تكون الواقع الراهن. إن "التفكير في الحياة" هو التفكير في الحاضر، في الأزمنة الجديدة " أو "الأزمنة الحديثة". هذا الاهتمام ظهر مع هيجل لأول مرة في تاريخ الفلسفة. وهكذا تكون فلسفة هيجل فلسفة تريد أن تعي العالم وتطرح كمهمة لها التفكير في الحياة. إن وعي العالم، أو وعي الزمن الراهن هو وعي الأزمنة الحديثة وقد سبق هيجل إلى هذا الطرح. يقول هابر ماس: "إن هيجل هو أول فيلسوف ينمي بكل

---

[1] Roger Garaudy, Hegel, Bordas – Paris 1985 p.190.

[2] Alexandre Koyré, Études d'histoire de la pensée philosophique. Gallimard, 1971, p.155

[3] François Châtelet, Hegel. In histoire de la philosophie, sous la direction de François Châtelet. T.V idées Doctrines Hachette – littérature 19. P.185

وضوح مفهوما للحداثة ولهذا يتوجب علينا أن نعود إليه لفهم المدلول الذي كان للعلاقة الداخلية القائمة بين الحادثة والعقلانية[1]. أول فيلسوف ينمي بكل وضوح مفهوما للحداثة ليس معناه طبعا أن هيجل هو أول فلاسفة الحداثة، بل ان هيجل هو أول من بلور بصفة واضحة مفهوما للحداثة، واتضحت معه معالم العالم الحديث وإمكانية اعتماد الحداثة على ذاتها.

إن من أهم المفاهيم الهيجلية مفهوم "روح العصر" واستقلالية هذا الروح عن طابعه القديم وشكل تمثله بل والقطيعة التي أقامها مع ماضيه. من هنا كانت فلسفة هيجل هي فلسفة هذا "الزمن الراهن". لقد بات من المسلم به لدى هيجل أن الزن قد حان (مع ظهور هذا العصر ليكتسب الروح شكلا جديدا فيقول هيجل في التمهيد للفينومينولوجيا "ليس من الصعب أن نرى أن زمننا هو زمن ولادة وزمن انتقال إلى حقبة جديدة. لقد قطع الروح علاقته مع هذا الشيء الذي شكل حتى الآن عالم كينونته وعالم تمثله الخاص[2]. أي أن كل المعالم الجديدة قد ارتسمت، وتحققت كل الإنجازات التي تخولنا أن نلاحظ أن الروح قد شرع فعلا في الانتقال، شرع مع سمات هذا العصر في التخلي عن شكله القديم، "مكتسبا شكلا جديدا. إن كتلة المفاهيم والأفكار المستعملة وحتى روابط العالم كل ذلك قد انحل وتهاوى. وبدأ الإعداد لهذه النقلة الجديدة للروح[3]. كما عبر عن ذلك في الكلمة الختامية لمحاضرات ايينا لعام 1806. ثم إنه إضافة إلى المعالم والسمات التي ارتسمت، ليشرع الروح في الانتقال، فإنه أيضا لم يكن من الصعب أن نلاحظ أنه قد تفككت في هذا الزمن المفاهيم التي كانت مستعملة، وتهاوت حتى روابط العالم لذلك قطع الروح علاقته مع شكله القديم. كل ذلك لأننا: "نعيش حقبة مهمة، تشهد حالة من الغليان، قام الروح فيها بقفزة نوعية إلى الأمام[4]. وهذا هو ما جعل هيجل يلح على أن هذا الحاضر هو المولد دوما للأسئلة باعتباره الزمن الذي يستطيع أن يكتفي بذاته. وهذه هي أهم سمات الحداثة حيث لم تعد بالنسبة لهيجل "للعودة إلى الماضي رغم أهميتها، إلا قيمة تفسيرية: إن ما ترمي إليه، يتمثل في تكوين التفكير بحيث يكون حاليا وقادرا على الاستجابة لأهدافه المعاصرة[5]. كما عبر عن ذلك ف. شاتلي. إن الاكتفاء بالحاضر فقط، وعدم اللجوء إلى حقبة أخرى، هو أهم خصائص الحداثة، وقد سبق هيجل إلى ذلك. ولقد عبر هابر ماس عن هذه الفكرة بصورة اكثر وضوحا: "إن حاضرا يفهم على أنه واقع الحال بالنسبة للزمن الحاضر، انطلاقا من أفق الأزمنة الحديثة مجبر على

---

[1] J. Habermas, le discours, op. Cit. p.5
[2] 38- Hegel. La phénoménologie op. Cit. p. 34
[3] Hegel. les conférences d'Iéna de 1806 – allocution finale, cité in. A Kojève introduction à la lecture de Hegel – Gallimard 1947 p.7
[4] 40- Hegel, Les conférences d'Iéna op. Cit. P7
[5] F. Chatelet. Hegel op.cit. p186

إقامة القطيعة بين الأزمنة الجديدة وبين العصور القديمة، بين الحاضر و الماضي، بشكل متجدد باستمرار[1].

هذه القطيعة التي أجبرت الحداثة أن تقيمها مع الماضي هي التي تؤكد من خلالها اهتمام هيجل بهذه المفاهيم المستوحاة من روح العصر. وهي مفاهيم مثل: الثورة والتقدم والأزمنة والتحرر.. إلخ. فالعالم الحديث يؤكد من خلال استحداثه لهذه المفاهيم واستعمالها في مجال الفكر على أن "الحداثة لا تستطيع ولا تريد أن تستعير من حقبة أخرى المعايير التي على أساسها تتوجه[2]. كما يقول هابر ماس الذي يؤكد على أنه، من خلال قطع الروح علاقته مع شكله القديم واكتسابه لشكل جديد حسب تصور هيجل، على "أن هيجل هو أول من خلق مشكلة فلسفية من فصل الحداثة عن إيحاءات الماضي الأصولية التي هي غريبة عنه[3].

وهذا هو التأكيد على أهمية هذا الحاضر. واعتماد هيجل عليه يقول في محاضرات في تاريخ الفلسفة: "إن مبدأ الفلسفة الحديثة ليس إذن التفكير في مباشرته الحرة، بل إنه يتمثل في إمكانية مقابلة التفكير والطبيعة(...)، أن نتفلسف معناه الآن (...) أن نفكر نحن –أنفسنا– وأن نقبل بالحاضر، من حيث هو مقام الحقيقة، وفيه تمكن معرفتها[4]. الحاضر بالنسبة لهيجل هو فقط مقام الحقيقة وخارج هذا الحاضر لا تمكن معرفتها. لهذا لا حاجة لنا بالاعتماد على حقبة زمنية أخرى، ما دام هذا الحاضر يوفر لنا المعايير الضرورية للتوجه. أي أنه ما دام هذا الحاضر يوفر للحداثة المعايير التي على أساسها تتوجه فلا حاجة لها باللجوء إلى حقبة أخرى. وهذا المبدأ هو مبدأ المشروعية واستقلالية الأزمنة الحديثة في مقابل التشكل الثقافي للعصور الأخرى. لقد بدأت الحداثة منذ نهاية القرن XVIII تطرح مسألة العثور في ذاتها على ضماناتها الخاصة بها ويرى هابر ماس أن "هذه المسألة قد أخذت شكلا أكثر حدة حتى أولها هيجل باعتبارها مشكلة فلسفية، بل حتى جعل منها المشكل الرئيسي لفلسفته[5].

ذلك أن الفلسفة الهيجلية أرادت أن تبني نمط العقلنة الهيجلية، بالاعتماد فقط على نفسها وتكريس القطيعة بينها وبين الفلسفات الأخرى يقول جان ابيير لابرييز: باعتماده للمنظمات الجديدة التي تجعله قريبا منا، يجب أيضا أن نلاحظ أن هيجل كان أول من أقام القطيعة مع المواضيع التقليدية مثلما فعل أيضا مع اللغة المدرسية من أجل معالجة المشاكل الفعلية للإنسان، مدخلا بذلك، مجموعة من المفاهيم المستوحاة من الحياة اليومية والتي لم يكن لها لحد ذلك الوقت،

---

[1] J. Habermas, le discours, op. Cit. p8
[2] Ibid. p.8
[3] Ibid. p.18
[4] Hegel leçons sur l'histoire de la philosophie op.cit. p. :1250
[5] Habermas, le discours op.cit p. 19

الحق في أن تستعمل في الكتابات الفلسفية[1]. أقام إذن هيجل حسب هذا النص قطيعة مع المواضيع التقليدية التي كان يتم تداولها في الفلسفة، تماما مثلما اعتمد جهازا مفاهيميا جديدا، استنبطه من الحياة اليومية ولم تكن الكتابات الفلسفية قبل هيجل، تضم تلك المفاهيم، حينما يكون الموضوع: معالجة المشاكل المتعلقة بالإنسان والمجتمع.

ولقد اعتبر لابرييز ان هيجل يمثل في أفق الأزمنة الحديثة مدارا متميزا وحلقة أساسية، بل و"إجبارية" لكل من يريد أن يتناول عالم الفلسفة المعاصرة في تقنيته أو ببساطته، لكل من يسعى إلى فهم العصر، العصر الذي نعيش فيه فقد قيل عن هيجل، انه آخر كبار المفكرين النسقيين للغرب – وهيدجر من بين الذين يأخذون بهذا الرأي[2]. هيجل إذن –يمثل نقطة تحول أساسية في تاريخ الفلسفة ويستحيل ولوج عالم الفلسفة المعاصرة بل وحتى فهم العصر الذي نعيش فيه اليوم بدون قراءة هيجل حسب لابرييز. فمع هيجل أصبحت الفلسفة الحديثة مرغمة أن تفهم الواقع نفسه – الكينونة، والمطلق، والإله، كل ذلك يتوزع في زمن التاريخ. وهذا الزمن أي زمن الفلسفة الحديثة، هو الذي بدأت فيه هذه الحقيقة تعرف وتعرب عن نفسها[3]. كما يقول إن الزمن الحديث يمثل في نفس الوقت موضوع وذات الخطاب هذا هو التصور الهيجلي للفسلفة الحديثة حسب كيرشير وانطلاقا من هذا التصور اعتبر هيجل أن "ديكارت هو الممهد الحقيقي للفلسفة الحديثة، باعتباره قد أخذ الـــ"أفكر" Le penser كمبدأ وفصله عن التيولوجيا الفلسفية (...) ولن نتمكن من تمثل مدى التأثير الذي مارسه هذا الرجل على عصره وعلى الأزمنة الحديثة[4]. لقد مهد ديكارت حسب هيجل للأزمنة الحديثة، بل انه الممثل الحقيقي لها ذلك أن ديكارت كان قد بنى أرضية جديدة للخطاب الفلسفي وجعل مبدأ هذه الأرضية هو الـــ"أفكر". كما أنه فصل هذا النمط من التفكير عن تيولوجيا الفلاسفة المتقدمين. إنه أيضا كما يقول هيجل: "بطل أعاد المسائل بصورة جذرية إلى البداية وأعاد تشكيل أرضية الفلسفة.[5]

كما أن تصور الفلسفة كعلم بدأ مع ديكارت يقول هيجل: "إن ما يسميه الفرنسيون العلوم الحقة، وعلوم الفهم المحدد قد بدأت (مع ديكارت) في هذا الوقت ولم تكن الفلسفة قد انفصلت عن العلم الحق[6].

---

[1] Jean Pierre – Labarrière, Introduction à une lecture de la phénoménologie de l'esprit. Paris, Aubier 1979 p. 32

[2] Ibid.op.cit. p.13

[3] Gilbert Kircher. Figures de la violence et de la modernité, essai sur la philosophie d'Éric Weil. Presse universitaire de Lille 1992 – p.75

[4] Hegel. Leçons sur l'histoire de la philosophie – op. Cit. p.1384

[5] Hegel op. Cit. p.1385

[6] Hegel. Leçons sur l'histoire de la philosophie – op. Cit. p.1385

ديكارت إذن قد شكل في نظر هيجل قطيعة مع التقليد الفلسفي وهذه هي السمة الأولى للحداثة عند ديكارت.

هذه السمة كانت قد تحققت مع كانط، فهذا الأخير كما يقول Gilbert Kircher : "قد قطع مع الطريقة التقليدية والغائية للتفلسف. إنه يغير ميدان الأسئلة، بواسطة حركة منقطعة. إلى أن يصل إلى السؤال الترانساندانتالي حول الشروط القبلية لإمكانية المعرفة والعمل[1].

لقد شكل كانط قطيعة مع التقليد الفلسفي وحاول أن يحدد الفضاء الفلسفي للسؤال، ليس فقط عن طريق تغيير الموضوع فحسب، بل وأيضا عن طريق تغيير الطريقة نفسها. فجاءت النقدية الكانطية متمثلة في الثالوث النقدي المعروف (نقد العقل الخالص، نقد العقل العملي، نقد ملكة الحكم). كما أن كانط قد "بين سذاجة الميتافيزيقا التي يعتقد في إمكانية تحديد الكينونة، والأصل الحقيقي، والعلة الأولى[2]. لقد أفسح كانط المجال أمام إشكالية التوجه، منطلقا في البداية من الحالة التي توجد فيها الذات، كفلسفة. وهكذا تمكن فيلسوف التحليل الترانساندانتالي أن يفصل قطيعته مع الميتافيزيقا، باعتباره قام بعمل حر للعقل النقدي الذي يكتسح وعيه بذاته، وبسلطته وبشرعيته. كما أن كانط قد نبه من خلال فلسفة التحليل الترانساندانتالي إلى قواعد فلسفة التاريخ، وهذه هي السمة الثانية لدى كانط. وعندئذ: "يصبح في استطاعة الفلسفة الحديثة أن تحدد تاريخيا، الخطاب الفلسفي –تحدده وليس تحده– وان تحدد فلسفيا موقفها من التاريخ[3]. ورغم أن تنبيه كانط إلى قواعد فلسفة التاريخ لم يكن كاملا ولا واعيا بذاته كما يحلو لكيرشير، فإنه مع ذلك قد أفاد هيجل الذي سيقوم بتأسيس فلسفة التاريخ معتبرا ان "التاريخ هو تاريخ العقل" فإنه بالنسبة إليه كما يقول: "التاريخ هو تقدم الروح في الزمان وفي المكان.

نفهم من كل ما تقدم أنه، طالما أن الحداثة تمتاز بصفة عامة بخاصيتين أساسيتين: أولهما الاعتقاد في قيم العقل وفي قدرة التقدم العلمي على خلق التقدم الحضاري، والثانية تتمثل في القطيعة مع المنظومات القديمة سواء كانت فكرية أم دينية ومع أشكال السلطة المتجاوزة للعالم الأرستقراطي وتقديم بديل عنه؛ إذا كانت هذه هي الخطوط الرئيسية التي تسم الحداثة، فقد حصل لدى هيجل كما رأينا وعي حقيقي بهذه الحداثة.

فقد رأينا خلال صفحات هذا المقال كيف وعى هيجل الحداثة، وكيف أطلق تسمية الأزمنة الحديثة وكيف حددها تاريخيا. ثم كيف قدم لنا هذه الأزمنة في شكل تأييد ومساندة لكل الحركات التي ساندت الحرية ودعت إلى تجاوز الاستبداد والظلم.

---

[1] Gilbert Kircher, figures de la violence et de la modernité op.cit. p. 76
[2] Gilbert Kircher, figures.. .op. cit. p.76
[3] Gilbert Kircher, figure… op. Cit. p77

إلى كل ذلك، ينضاف الإيمان بالعقل وقدرته على الإنجاز، وتركير التفكير على الحاضر باعتباره المولد دوما للإشكاليات التي على الفلسفة الحديثة تتناولها. يبقى فقط أن نشير إلى أن العلاقة الفلسفية للحداثة لدى هيجل تتركز في فلسفة الذات، فمن خلال الوعي بالذات ومختلف مراحل الفينومينولوجيه رسم هيجل المعالم الفلسفية للحداثة أي أنه رسم المعالم الفلسفية للفلسفة الحديثة من خلال الذاتية.